

جامعة الجيلالي اليابس

- سيدي بلعباس -

النظرية الانقسامية والمجتمعات المغاربية

مقدمة:

تعتبر ظاهرة القبلية في بلاد المغرب وشمال إفريقيا عامة، ظاهرة عميقة الجذور في التاريخ وتبقى مقياس التعريف لتنظيمها والتي نجعل منها حقيقة تفوق الظروف الزمكانية قائمة حتى الوقت الراهن رغم ما عرفته المنطقة من تحولات تكاد تكون جذرية، مسّت مختلف جوانب هذه المجتمعات (تحولات في البنى الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية والسياسية..). وهذا ما أثبتته الدراسات التاريخية والسوسيولوجية.

"عندما نتحدث مثلا عن البربر ومقاومتهم سواء للدولة الرومانية الزاحفة أو فيما بعد للتوسع الإسلامي فإن ذلك يعني مقاومة المجتمعات المحلية المنتظمة في شكل قبلي سبق مجيء الرومان وعاصره، كما سبق مجيء الإسلام وتكيف معه" ⁽¹⁾

فورد اسم (المصطلح) الدال على الظاهرة على سبيل المثال ولا للخصر في القرآن الكريم "وجعلناهم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمهم عند الله أتقاهم" ⁽²⁾

كما تناولها أوائل المهتمين بالمجتمعات من علماء (ابن خلدون، وديركايم فيما بعد...) بل أفرزت البحوث العلمية لهذه الظاهرة عدة

إشكاليات منها ما يزال على محك البحث والتنقيب، وتبقى ظاهرة القبيلة من المواضيع التي تستقطب اهتمام الباحثين من مختلف الميادين العلمية وتخصصاتها الفرعية مثل (التاريخ الاجتماعي، علم الاجتماع والانتروبولوجيا بفروعها الاجتماعية والبدوية والاقتصادية..).

ونحاول في هذا المقال المتواضع أن نتطرق لأحد الجوانب المنظرة لهذه الظاهرة في الإقليم المغاربي على وجه التحديد إن لم نقل بشمال إفريقيا وذلك لعمومية ظاهرة القبيلة وامتداد نمطيتها بالمنطقة، ألا وهي النظرية الانقسامية وذلك بقراءة لبعض مقارباتها بالإقليم.

هذه الأخيرة (النظرية الانقسامية) ذات المرجعية الأولى للبحوث السوسولوجية الفرنسية (Emile Duckheim) ضمن أطروحته حول "تقسيم العمل الاجتماعي" التي قام بها سنة 1893 والتي استند فيها على أولى الأعمال الدراسية التي جرت بالقطر الجزائري (أبحاث كل من "لوتوري **le Tourneux**" وهانوطو **Hanoteau**" وماسكراي **Masqueray**⁽³⁾، والتي كان لها وقعها في الساحة العلمية في تبين شكلين من التضامن داخل المجتمعات البشرية⁽⁴⁾.

يقول ديركاي في تعريفه للمجتمعات الانقسامية:

"نقول إن هذه المجتمعات انقسامية لأنها مبنية على تعاقب تكتلات تشابه فيما بينها مثل الحلقات المتتالية، ويمكن تسمية الكتلة عشيرة، باعتبارها أن هذه الصيغة تعبر عن طبيعة مزدوجة عائلية وسياسية في آن

واحد، والواقع أن هناك قرابة دم تجمع بين جل أفراد العشيرة الشيء الذب يخلق بينهم شعورا بروابط القرابة"⁽¹⁾ .

لقد حظيت النظرية الانقسامية بعناية واهتمام كبيرين فيما بعد، من قبل الباحثين السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين، خاصة الأنجلوسكسون منهم، هؤلاء الذين كان لهم السبق في تحديد معالمها وذلك استنادا لأفكار ديركام. حيث يذهب (E) Gellener في تعريفه للقبائل ذات النظام الانقسامي فيقول:

" إن النظام القبلي المعتمد نموذج البنى الانقسامية هو في العموم نظام المعارضات المتوازنة، فهو لا يسمح بوجود سلطة مركزية في قبلية معينة إن السلطة موزعة في كل نقطة من البنية القبلية والسلطة السياسية هي سلطة محدودة وتشارك فيها القسمة بأكملها أو القبلية، فلا يمكن مثلا للسلطة أن تتمركز في يد شيخ واحد من شيوخ القبيلة خاصة وأن المبدأ الأساسي لدى القبائل (البنية القبلية) هو معرضة القسمات بعضها البعض" ⁽⁶⁾ .

¹ - تمحورت هذه الأطروحة حول تبيان أشكال النظام السائدة في المجتمعات وخلصت إلى الوقوف على نوعين من التضامن:

أ- التضامن الآلي: وهو السائد في المجتمعات البشرية التنبيه بدائية من عشائر، قبائل... ذات الميزة الانقسامية.

ب- التضامن العضوي: وهو الشكل الملاحظ في المجتمعات المتقدمة (الغربية) أين يلعب الفرد دورا في هذا الشكل وتنتقل ظاهرة التضامن في المجتمعات من الشكل الآلي (أ) إلى العضوي (ب) وذلك عبر الصيرورة التاريخية.

وبالتالي نقف على التقارب الكبير بين التعريفين وإن كان **Gelber** أكثر دقة ووضوحا. إذ نستخلص مما سبق أن المجتمعات الانقسامية تتميز باعتمادها على تداخل القسامات ذات الصفة التكاملية والتعارضية كمبدأ في التنظيم والتسيير، أما بالنسبة للمجال السياسي فالسلطة الفعلية بيد القسامات وليس بيد رئيس أعلى الهرم للقبيلة (رئيس القبيلة) وهذا معناه تقاسم السلطة على البنيات المكونة لهذا الهرم، وهذا ما استخلصه **Gellner** "مبدأ: تجزأ لكي لا تحكم".

فالجدير بالذكر أنه بالنسبة للجزائر وتونس في الاتجاه الانقسامي يمكن الاعتماد على أعمال "لوسات فالنسي **Licette Valensi** ⁽⁷⁾ التي تعتبر نقدا ونقيضا لأعمال **Gallissot**" هذا الأخير الذي اعتمد في دراسته لهذه المجتمعات على آليات التحليل الماركسي (قبل الاستعمار)

فإذا خلاص "غاليسو **Gallissot**" أن البنيات لهذه المجتمعات تميزت بنمو قواها الإنتاجية قبل الاستعمار.

وأن المجتمع الجزائري كان مجتمع طبقي إقطاعي (قبل الاستعمار) فإن **Lucette valensi** على العكس من ذلك نرى أن الهياكل الاجتماعية تميزت بالركود الإنتاجي في تلك الفترة، كما أنه لا يمكن الحديث عن الطبقة في المجتمع الجزائري قبل الاستعمار (إبان التواجد التركي) وذلك لطبيعة البنية الاجتماعية للمجتمع (مجتمع قبلي (تقسيم قبلي وليس طبقي)، إلا أنها تظيف ملاحظة، والتي تتمثل في وجود بعض القبائل المحسوسة وهي القبائل التي تعاملت واقتربت من الإدارة العثمانية (القبائل المخزنية) ولكن هذا لا يضيف على المجتمع الصبغة الطبقية.

أمّا بالنسبة للنظام الإقطاعي، ذهبت **Lucette Valensi** إلى تنفيذها
تنفيذا كلياً باعتمادها على الأسباب التالية:

- ضعف الفائض الإنتاجي لدى الفلاحين.
- ضعف نظام الأحباس الذي كان يعتبر قسطاً من النظام العقاري
السائد في تلك الفترة.
- إضافة إلى عدم مقدرة نظام الخماسة الذي يهدم الاقطاع إلى
حد ما على الانتشار.

أمّا بالنسبة للقطر الليبي، فتمثلت الانقسامية على وجه الخصوص في دراسة "
ايفنس بريتشارد" والتي يمكن اعتبارها عملية اسقاطية للنتائج التي توصل إليها
في دراسته لقبائل "النوير السودانية" بعد أخذه فكرة الانقسامية عن دير
كالم.

إلاّ أمّا كانت في مجال مختلف، إذ لم يطبقها على القبائل الليبية إنّما
على الحركة السنوسية بليبيا سنة 1949، باعتبارها حركة صوفية انتشرت
فروعها عبر القطر الليبي مع الثلاثينات من القرن 19 حتى فترة الاجتياح
الاطالي لليبيا مع عدم ذكر أي تمييز لها عن النتائج التي توصل إليها في
دراسة لقبائل "النوير السودانية" رغم التباين في المجال (المجال القبلي/ المجال
الصوفي). ما عدى الإشارة إلى علاقة الحركة السنوسية وعلاقتها بالإدارة
العثمانية والاستعمارية فيما بعد عبر مسارها التاريخي (8).

أما المغرب الأقصى، فيمكن القول أنه كان القطر المفضل لأصحاب
النظرية الانقسامية لإجراء تطبيقاتها على القبائل المغربية، ونشير في هذا

الإطار إلى أعمال "Ernest Gellner" في كتاب "صلحاء الأطلس Saints of Atlas" والذي خلص فيه إلى أن قبائل الشمال الإفريقي قبائل انقسامية وقبائل الأطلس الكبير المغربية بوجه التحديد. كما تشير "ليلى بن سالم" على أن Gellner خلص في دراسته لقبائل الأطلس الكبير المغربي على أنها قبائل تتميز بخاصيتين (قبائل انقسامية/ وقبائل هامشية) هذا من جهة ومن جهة أخرى نجد "جون واثربروري J. Waterbury" يعمد إلى تطبيق نتائج النظرية الانقسامية على القبائل المغربية إلا أن اللافت للانتباه هذه المرة لم تكن هذه التطبيقات في المجال الأنثروبولوجية الاجتماعية بل على الميدان السياسي (على الأحزاب السياسية المغربية) وذلك في عملية إسقاطية أن الأحزاب السياسية تلعب دور العشائر ويلعب الملك دور الصالح أو الشريف.

وفي الأخير يمكن القول على أنه "استطاعت الانقسامية باعتمادها على كل من الباحثين الأنثروبولوجيين ونظرائهم في علم الاجتماع السياسي أن تصوغ نماذج وأدوات مفاهيمية خاصة، هذا ما مكنها من أن تمارس إغراء كبيرا على الباحثين في ميدان المجتمع المغربي" ⁽⁹⁾ إلا أننا نعتقد أنها (النظرية الانقسامية) لم تسلم من النقد وإن كانت تحاول تجنب النظرية الايديولوجية الغربية التي طفت على كل من النظرية الكولونيالية (علم الاجتماع الكولونيالي) وحتى النظرية الماركسية، ونشير في ذلك إلى النقاط التالية:

- تعميم النتائج الجزئية على العام (تعميم ما توصلت إليه في مجتمع معين وزمان معين على المجتمع الكلي المغربي)

- الانقسامية تكشف عن بعض قفزاتها الغير المبررة (حين تواجه مسألة الدولة فكيف تقسم عملية الانتقال من النمط القبلي إلى الدولة في ظل مفهومي الانصهار والانشطار.

- إن العروي يؤكد على قصور التصور الانتروبولوجي الغربي للمجتمعات المغاربية بصورة عامة وعجز الانقسامية بصورة أخص على فهم وتفسير المجتمع المغربي (ومنه المغاربي). لأهما يختزلان عناصر السيرة التاريخية وعوامل التطور الاجتماعي ويركزان على سببية بنيوية.

- استناد الانقسامية إلى الإيديولوجية الغربية (المركز والاطراف) المشبعة بالتحالي الغربي بما استندت على الفكر الكولونيالي وإن كان بطريقة غير مباشرة (المجتمع المغاربي مجتمع انقسامي تقليدي متخلف، يعيش في دوامة من الصراعات في حاجة للوحدة والتلاحم وهي الرسالة الحضارية التي تكفل بها الغرب بنشرها في المغرب العربي (تبرير ظاهرة الاستعمار).

وخلاصة القول أن النظرية الانقسامية تعتبر من الدراسات التي تناولت الاقليم المغاربي وكيفما كانت هذه الدراسات (السلب/ الايجاب) إلا أنها قد تكون مهدت للدراسة السوسيو انتروبولوجية العربية والمغاربية الفترة ما بعد الاستقلال والتي يمكن الرجوع إليها إلا بعد الدراسة النقدية.

الهوامش

1- ليندة الأرقش، عبد الحميد الأرقش وجمال بن طاهر: مقدمات ووثائق في تاريخ المغرب العربي الحديث ص 175.

2- الآية القرآنية

3- هانوطو: "صراعات الصفوف" Masqueray (E): Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie.

(يتطرق فيه عن البنيات والمؤسسات القبلية في منطقة القبائل والأوراس والمزاب. محاولا الوقوف على المكانة والأدوار التي تلعبها هذه البنيات في المجتمع الجزائري في تلك الفترة)

4- Durkheim (E): De la division du travail social; P.U.F Paris, P.P. 88. 102

5- تمحورت هذه الأطروحة حول تبيان أشكال النظام السائدة في المجتمعات وخلصت إلى الوقوف على نوعين من التضامن:

أ- التضامن الآلي: وهو السائد في المجتمعات البشرية التنبيه بدائية من عشائر، قبائل... ذات الميزة الانقسامية.

ب- التضامن العضوي: وهو الشكل الملاحظ في المجتمعات المتقدمة (الغربية) أين يلعب الفرد دورا في هذا الشكل وتنتقل ظاهرة التضامن في المجتمعات من الشكل الآلي (أ) إلى العضوي (ب) وذلك عبر الصيرورة التاريخية.

6- Gellner (Ernest): système tribal et chargement social en Afrique du nord, annales marocaines de sociologie 1969.

7- Valensi Lucette: Le Maghreb avant la prise d'alger 1969.

- Fellahs tunisiens, l'économie rurale et la vie des compagnes du 18 e et 19 e siècles 1977.

8- ليليا بن سالم: المقاربة الانقسامية Intérêt des analyses en termes
segmentaires pour études des sociétés du Maghreb.

9- حمودي عبد الله: " الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية
والقداسة: ملاحظات حول أطروحات كيلنر في الأنثروبولوجيا والتاريخ،
حالة المغرب العربي، دار توبقال، المغرب، 1988، ص 60.